إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد العاشر – صيف ۱۳۹۲ش/ حزيران ۲۰۱۳م
صص ٤٣ ـ ٦٨

دراسة موازنة لصورة الروم فى الأشعار الحربية لأبى تمام وأبى فراس الحمدانى

عبدالغنى إيروانى‌زاده*
زهرا باقرى ورزنه**

الملخص

وقعت حروب كثيرة بين العباسيين، والروم، والخرميين وبين الحمدانيين والروم أيضا، إضافة إلى حروب القبائل بعضها مع بعض؛ يتعرّض هذا المقال لما وقع من الحروب بين العرب والروم من خلال دراسة قصائد حربية للشاعرين البارزين فى القرن الثالث الهجرى والقرن الرابع الهجرى واللذين ترعرعا فى بيئتين بينهما تشابه كبير، والإسلام دينهما والروم أعداؤهما، هما أبوتمام الطائى الذى شارك فى الحروب بلسانه وأبو فراس الحمدانى الذى شارك فيها بكلّ كيانه، أمّا أبوتمام فالقصائد التى يصور فيها حروب العرب مع الروم هى فى الأصل من قصائده المدحية، لذلک يستهلّها بالمقدّمة الغزلية أو بالمقدمة الطّللية، ولا بدّ أن تكون الصور التى يرسمها للقواد ممّا يرضيهم وقد استطاع أن يوفّى القوّاد حقّهم، خاصّة هؤلاء الّذين أغفل التاريخُ ذكرَهم، من مثل: أبى سعيد الثّغرى. أمّا أبوفراس فى قصائده الحربية فيطرق الموضوعَ بسرعة دون اتّكاء على المقدّمات، وهذه القصائد فى الأصل من قصائده المدحية والفخرية؛ فتعتبر قصائد هذين الشاعرين من الوثائق الهامّة للتاريخ والشعر.

الكلمات الدليلية: أبوتمام، أبو فراس الحمدانى، الأشعار الحربية، الروم.

---

*. جامعة أصفهان، إيران. (أستاذ مشارک)
**. جامعة أصفهان، إيران. (طالبة مرحلة الماجستير)
Zahrabagheri5@gmail.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى
تاريخ الوصول: ۱۳۹۱/۱۱/۱٤ش تاريخ القبول: ۱۳۹۲/٤/۱۸ش

المقدمة

إنّ الظروف السياسية، والاجتماعية، والجغرافية، والحضارية فرضت أن تكون هناك علاقـات بين العربى والأجنبى، وعلاقـة العرب بالأقوام الآخريـن فى البلاد الأخرى علاقة قديمة ترجع إلى ماقبل الإسـلام، فالعرب اتصلـوا بالفرس، والروم، والأحباش وهذه العلاقات كانت فى المجالات الاقتصادية، والثقافية، والدينية، والسياسـة. فبعض الشـعراء الجاهليين استحضروا صورة الفرس فى أشعارهم من مثل الأعشى، أمّا صورة الروم فتبرز فى الشعر العربى منذ عهد الخلفاء الراشدين إلى العصر العباسى، فنرى أكثر حضورها فى أشعار أبى تمام، والمتنبى، وأبى فراس الحمدانى وفى دراستنا هذه نركّز على ما صّوره الشـاعران أبوتمام وأبوفراس الحمدانى من المعارک مع الروم، وهزائم الروم، وجبن قوادهم، وفرارهم من ساحة الوغى، وأسر رجالهم، وسبى نسائهم.

وفى مجال دراسـتنا هذه لم نعثر على أى مقال أو رسـالة تكون قد تطرّقت إلى موضوعنا المذكور ولكن وجدنا مقالا موضوعه "الحرب والقتال فى شعر أبى تمام" للدكتور مزهر السودانى، فالباحث فيه يتحدث عن الحروب الخارجية التى وقعت بين العرب، والروم، والخرميين وعن الحروب الداخلية ويكتفى أحيانا بذكر مطلع القصائد دون الخوض فى محتواها.

صورة الروم فى الأشعار الحربية لأبى تمام

إن الصراع بين العرب والروم اتّخذ بعداً محسوسـا فى العصر العباسـى وأثَّر هذا فى أبىتمام وألهب خياله فاسـتطاع أن يفتح «باباً جديداً فى الشـعر العربى هو شعر الحرب، ويفتق فى نطاق الموضوع معانى مستحدثة لم تُعرَف من قبل.» (الشكعة، ١٩٨٦م: ٦٦٩)

انتصار العرب على الروم بقيادة المأمون

لَعَلّ أوّلَ شعرٍ قاله أبوتمام فى تصوير الصراع بين العرب والروم قصيدته التى صوّر فيها معركةً خاضها المأمونُ ضد الروم وفتح فيها "حصن قرّة"، إنّه يبدأ القصيدةَ بالإلمام بالدّمن والأطلال ويتبع ذلک بنسـيب دقيق ثم يخلص بعـد ذلک إلى مدح المأمون، ثم يصف بعد ذلک قوةَ جيش المأمون وكثرةَ عدده حتى لقد ملأ الفضاء بحيث لايستطيع المرء أن يدرک أولَـهُ من آخره، ومن خلال وصف الجيش يصف الخيلَ، ثم ينطلق إلى وصف المعركة وما

قد وقع على الأعداء من هزيمة واستسلام؛ فالشاعر يصفُ الجيشَ قائلاً:

فَنَهَضْتَ تَسْحَبُ ذَيْلَ جَيْشٍ سَاقَهُ   حُسْنُ الْيَقِينِ وَقَادَهُ الْإِقْدَامُ
مُثْعَنْجِرٍ[1] لَجِبٍ[2] تَرَى سُلَّافَهُ[3]   وَلَهُمْ بِمُنْخَرِقِ الْفَضَاءِ زِحَامُ
مَلأَ الْمَلَا عُصَبًا فَكَادَ بِأَنْ يُرَى   لَا خَلْفَ فِيهِ وَلَا لَهُ قُدَّامُ
بِسَوَاهِمٍ لُحُقِ الأَيَاطِلِ[4] شُزَّبٍ[5]   تَعْلِيقُهَا الْإِسْرَاجُ وَالْإِلْجَامُ
وَمُقَاتِلِينَ إِذَا انْتَمَوْا لَمْ يُخْزِهِمْ   فِى نَصْرِكَ الْأَخْوَالُ وَالْأَعْوَامُ
سَفَعَ[6] الدُّؤُوبُ وُجُوهَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ   وَأَبُوهُمْ سَامٌ أَبُوهُمْ حَامُ
تَخِذُوا الْحَدِيدَ مِنَ الْحَدِيدِ مَعَاقِلاً   سُكَّانُهَا الْأَرْوَاحُ وَالْأَجْسَامُ
مُسْتَرْسِلِينَ إِلَى الْحُتُوفِ، كَأَنَّمَا   بَيْنَ الْحُتُوفِ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامُ
آسَادُ مَوْتٍ مُخْدِرَاتٌ مَا لَهَا   إِلَّا الصَّوَارِمَ وَالْقَنَا آجَامُ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٤٩٠)

فالجيش كالسيل يملأ الفضاء والخيل فهى ضامرة دائمة الإسراج والإلجام، والفرسان هم الشجعان كأخوالهم وأعمامهم، وطول السفر غَير لون بشرتهم وسوَّدها وتحصّنوا بالسيوف والرماح والدروع التى تعصمهم أمام سيوف الأعداء مستأنسين إلى الموت فرحين بلقائه، كأنما بينه وبينهم قرابة.

نشاهد فى هذه الأبيات قدرته على تصوير حركة الجيش، وتصوير أصواته، وضوضائه.

ثم يصف الأسرى من كبار القادة قائلاً:

حَتَّى نَقَضْتَ الرُّومَ مِنْكَ بِوَقْعَةٍ   شَنْعَاءَ لَيْسَ لِنَقْضِهَا إِبْرَامُ
فِى مَعْرَكٍ أَمَّا الْحِمَامُ فَمُفْطِرٌ   فِى هَبْوَتَيْهِ وَالْكُمَاةُ صِيَامُ
وَالضَّرْبُ يُقْعِدُ قَرْمَ كُلِّ كَتِيبَةٍ   شَرِسَ الضَّرِيبَةِ[7] وَالْحُتُوفُ قِيَامُ

١. الْمُثْعَنْجِرُ: السيل الكثير. (مصطفى وآخرون، ٢٧٩١م: ٦٩)
٢. لَجِبَ القوم: صاحوا وأجلبوا، ـ ويقال لَجِبَ الموجُ: اضطرب فهو لَجِبٌ. (المصدر نفسه: ٥١٨)
٣. السُلّاف من العسكر: مقدّمتهم. (المصدر نفسه: ٤٤٤)
٤. لَحِق الفرس: ضَمُر. الأيطل من مادّة الإطل: الخاصرة. (المصدر نفسه: ٨١٨، ٠٢)
٥. شَزَبَ الحيوان: ضمر فهو شازب (ج) شُزَّب. (المصدر نفسه: ٤٨١)
٦. سَفَعَ السَّموم والنار والشمس وجهه: لفحته لفحا يسيرا فغيّرت لون بشرته. (المصدر نفسه: ٤٣٤)
٧. الضّريبة: الطبيعة والسجية. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٥٣٧)

فَفَصَمْــتَ عُرْوَةَ جَمْعِهِمْ فِيهِ وَقَدْ جَعَلَتْ تَفَصَّمُ[١] عَنْ عُرَاهَا الْهَامُ
مَا كَانَ لِلْإِشْــرَاکِ فَوْزَةُ مَشْهَدٍ وَاللهُ فِيــه وَأَنْــتَ وَالْإِسْــلَامُ
لَمَّــا رَأَيْتَهُــمُ تُسَــاقُ مُلُوكُهُــمْ حزَقــاً[٢] إِلَيْــکَ كَأَنَّهُــمْ أَنْعَامُ
جَرْحَى إِلَى جَرْحَى كَأَنَّ جُلُودَهُمْ يُطْلَــى بِهَا الشَّــيَّانُ[٣] وَالْعُلَّام[٤]
مُتَسَــاقِطِي وَرَقِ الثِّيَابِ كَأَنَّهُمْ دَانُوا فَأُحْــدِثَ فِيهِم الْإِحْرَامُ
فَرَدَدْتَ حَدَّ الْمَوْتِ وَهْوَ مُرَكَّبٌ فِي حَــدِّهِ فَارْتَدَّ وَهْــوَ زُؤَامُ[٥]

(المصدر نفسه: ٤٩١)

فالشــاعر أومأ إلى المعانى الدينية فى الصيام والإفطار، واســتخدم الطباق فى النقض والإبرام، والإفطار والصيام، والقعود والقيام، ثمّ وصف المعركة الدّامية وعبّر عن احتدامها، واعتمد على الاستعارة المكنية فيتخيل الموت شخصاً مفطراً يلتهم الأرواح، بينما فرسان المأمون مشــغولون بالقتال، صائمون عن الأكل والشــرب، وينقضــون على أبطال كتائب الأعداء بســيوفهم حيث الموت واقفٌ يلتقطهم، فتمزّق شملهم وتقطّع هاماتهم، فيســوقون ملوكهم وقوادهم إلى المأمون أســرى أذلّاء جرحى كالأنعام، وقد رأى أبوتمام أنّ الصراع بين العرب والروم صراع دينى؛ صراع المســلمين مع المشركين فالروم أى الكفّار أذلّاء قد تمزقت ثيابهم وليس عليهم إلا ما يستر عوراتهم، وقد غطّت الدماء أجسامهم.

ويلاحــظ أنّ الشــاعر له قدرة متميّزة على تصوير الحركــة، فالموت الذى هو مظهر السكون والجمود وفقدان الحيوية يجد فى شعره حيوية.

إنّ الشــاعر من أجل موسيقى الألفاظ يحرص على تردّد الحروف وحشدها، فنجده يكرّر بعض الحروف داخل البيت الواحد مثلاً يأتى بالكلمات ذوات الدال والراء كما فى البيت الأخير، وتصحب هذين الحرفين الشدة والسرعة اللتين تلازمان الحرب.

وفى قصيــدة أخرى مــن قصائده الحربية، يمدح خالد بن يزيد الشــيبانى ويســجّل

١. فصَم الشیءَ: شقّه، انفصمت العروة: انقطعت. تفصّم: انكسر دون بينونة. (المصدر نفسه: ٦٩٢)
٢. الحِزْقة: جماعة من الناس والطّير والنّحل وغيرها. (الرازى، ٢٠٠٦م: ١٤٠)
٣. الشيّان: من مادّة شيا (شيو)، دم الأخوين. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٢٦٤/٧)
٤. العُلّام: الحنّاء. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م :٦٢٤)
٥. موت زُؤام: عاجل، وقيل سريع مُجْهِزٌ. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٦/٦)

انتصاره على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصوراً كيف ولّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده، يقول:

وَلَمَّا رَأَى تُوفِيلُ رَايَاتِکَ الَّتِي إِذَا مَا اتلأَبَّتْ[١] لا يُقَاوِمُهَا الصُّلْبُ
تَوَلَّى وَلَمْ يَأْلُ الرَّدَى فِي اتِّبَاعِهِ كَأَنَّ الرَّدَى فِي قَصْدِهِ هَائِمٌ صَبُّ
كَأَنَّ بِلادَ الرُّومِ عُمَّتْ بِصَيْحَةٍ فَضَمَّتْ حَشَاهَا أَوْ رَغَا[٢] وَسْطَهَا السَّقْبُ
بِصَاغِرَةِ القُصْوَى وَطِمَّيْنَ وَاقْتَرَى بِلادَ قَرَنْطَاوُوسَ وَابِلُکَ السَّكْبُ
غَدَا خَائِفًا يَسْتَنْجِدُ الْكُتْبَ مُذْعِناً عَلَيْكَ فَلاَ رُسْلٌ ثَنَتْکَ وَلَا كُتْبُ
وَمَا الْأَسَدُ الضِّرْغَامُ يَوْماً بِعَاكِسٍ صَرِيمَتَهُ إِنْ أَنَّ أَوْ بَصْبَصَ[٣] الْكَلْبُ
وَمَرَّ وَنَارُ الْكَرْبِ تَلْفَحُ قَلْبَهُ وَمَا الرَّوْحُ إِلَّا أَنْ يُخَامِرَهُ الْكَرْبُ
مَضَى مُدْبِراً شَطْرَ الدَّبُورِ، وَنَفْسُهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ سُوءِ ظَنٍّ بِهَا إِلْبُ[٤]
جَفَا الشَّرْقَ حَتَّى ظَنَّ مَنْ كَانَ جَاهِلا بِدِينِ النَّصَارَى أَنَّ قِبْلَتَهُ الغَرْبُ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٧٩–٨٠)

فتيوفيل فرّ مهزوماً والردى كعاشق يعشقه فهو أنّى يهرب يلاحقه الرّدى، كأنما عمت بلاد الروم صيحة خلعت القلوب وكأنها الصيحة التى أنذرت من قبلهم ثمود حين رغا ولد الناقة التى عقروها عصيانا لله، فأرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا هشيما أطارته الرياح وفرّقته وهذا أشبه بقوله تعالى ﴿وَأَخَذَ الّذينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

(هود: ٦٧)، ثمّ الشاعر يسمى الأماكن الرومية ويواصل أنّ تيوفيل يرسل إلى خالد بن يزيد قائد المسلمين الكتب والرسائل ليطلب منه العفو، ولكن دون جدوى، ثم يشبّه القائد بالأسد الضرغام الذى لايثنيه شيءٌ عن عزيمته ويشبّه تيوفيل بالكلب الذى يحرّک ذنبه مداراةً لهذا الأسد تقرّباً له، ولكن سعيه دون جدوى، ونار الحزن والغمّ تحرق قلبه

١. اتلأبّ: تتابعت هزّتها. (التبريزى، ١٩٩٢م: ١٠٧/١)
٢. رَغا البعير: صوّت وضجّ. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٣٥٨)
٣. بَصْبَص الكلبُ: حرّک ذنبه طمعاً أو مَلَقاً. (المصدر نفسه: ٥٩)
٤. ألَبَ القوم أَلْبًا: تجمَّعوا وعليه الناسَ: حَرَّضهم؛ والإلْب: التدبير على العدوّ من حيث لا يَعلم. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٢٣؛ ابن منظور، ١٩٨٨م: ١٧٨/١)

والمسلمون فرحون بما يخامر من الحزن والغمّ هذا العدو الذى فقد ثقته حتى بنفسه.

هذه الأبيات لاتخلو من التهكّم أيضًا حيث نشاهد فى البيت الأخير السخرية من "تيوفيل" لأنّه أعرض عن الشرق وفرّ إلى الغرب حتى يظّن الجاهل بالنّصرانية أنّ قبلة الصّلاة عندهم هى الغرب لا الشرق.

ويبرز الجانب الدينى فى هذا البيت:

رَدَدْتَ أَدِيمَ الدِّينِ أَمْلَسَ بَعْدَمَا   غَـدَا وَلَيَالِيـهِ وَأَيَّامُـهُ جُرْبُ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٨٠)

يخاطب الممدوح ويقول: «نفيت كلّ ما لابس [الدين] من الشِّرك أى كأنّه كان أجرب فرددته أملس صافيًا.» (التبريزى، ١٩٩٢م: ١٠٩/١)

انتصار المسلمين على الروم بقيادة المعتصم

يسجّل الشاعر فى قصيدة أخرى من قصائده المدحيه انتصارَ المعتصم على البيزنطيين، ويستهلّها باستهلال غيرمألوف، إنّه لم يقف بالأطلال، والدمن، والنسيب وإنّما يستهلها بتفضيل القوة على العقل والسيف على الكتاب لأنّ المنجّمين كانوا يعتقدون بأنّ النصر يحصل بعد نضج التين والعنب، ولكن المعتصم فعل ما شاء وعند ما تحقّق النصر وثبت كذب المنجّمين أشاد أبوتمام بهذا الفتح ووصفه بـ "فتح الفتوح" قائلًا إنّه فتحٌ لايُضاهَى ولايوصف بشعر أو بنثر، فيقول فى مطلعها:

السَّـيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِـنَ الكُتُبِ   فِى حَـدِّهِ الْحَـدُّ بَيْنَ الْجِـدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فى   مُـتُونِهِنَّ جَلَـاءُ الشَّـكِّ وَالـرِّيَـبِ

(أبوتمام، ١٩٨١م: ٢٢)

ثم يخاطب الشاعر يوم النصر الذى حدثت فيه وقعة عمورية لجلاله وعظمته، ويعمد إلى الاستعارة فيشبه الْمُنَى المعسولة التى تحققت بالفتح، بالنياق الحافلة ضروعها باللبن ويتغنّى بما تحقّق للإسلام من عزّ ومجد بينما انهارت دعائم الروم، فيقول:

يَـا يَـوْمَ وَقْـعَةِ عَـمُّورِيَّةَ انْـصَرَفَتْ   مِنْكَ الْمُنَى حُفَّلًا مَـعْسُـولَةَ الْحَـلَبِ

أَبْـقَيْتَ جَدَّ بَنِي الْإِسْلامِ فی صَـعَـدٍ   وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْکِ فِی صَـبَـبِ
(المصدر نفسه: ٢٤)

ویصوّر امتناع المدینة عن فاتحیها قبل المعتصم، فیشبهها بامرأة شابة استعصت علی ملــوک الفرس وتبابعة الیمن وظلّت بکراً لم تفترعها الحادثات منذ عهد الإســکندر أو قبله وهی لم تزل شــابة حتی صارت کأنها زبدة الســنین، ولکنّها لم تبخل بشبابها علی المعتصم فافترعها، وکان الفتح خطبا مُدلهمّا علی الروم وکان غزو "أنقرة" نصراً للمعتصم وشؤماً علی عموریة.

ثم یخاطــب أبوتمام القائد الظافــر الذی غادر أرض المعرکة وقــد أضرم النیران فی المدینة فی ذلک الیوم، فیشــیر إلی روایة تاریخیة وهی أنّ «امرأة عربیة من أهل زبطرة لقیت من الغزاة شــدة وتعذیبا، فصاحت وهی تُساق إلی الأســر: "وامعتصماه" وبلغت اســتغاثتها المعتصم، فتململ وصرخ "لبّیک لبّیک" ثم جمع العســکر [...] ومضی بجیشه العظیم إلی عموریة.» (الحاوی، ١٩٨٦م: ١٠٢/٣)

ثم یصــوّر أبوتمام وقع الهزیمة علی "تیوفیل" قائد البیزنطیین الذی لمّا شــاهد الجیش زاحفــا علیه کالســیل حاول أن یغری المعتصم بالأموال وهو لایعلم أنّ المعتصم نفســه أنفق الذهب الکثیر الذی هو أکثر من الحصی، فعندما باءت محاولات "تیوفیل" بالفشل لم یجد أمامه إلّا الفرار بفلوله وقد ألجمت الرماح منطقه فکّف عن الکلام بینما استعرت أحشاؤه من الفزع فأخذ یعدو عدواً سریعاً کالظّلیم.

لَمَّا رَأَی الحَرْبَ رَأْیَ الْعَیْنِ تُوفِلسٌ   وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ الْمَعْنَی مِنَ الْحَرَبِ[1]
غَـدَا یُصَـرِّفُ بِالْأَمْـوَالِ جِرْیَتَهَا   فَعَـزَّهُ الْبَحْـرُ ذُو التَّیَّـارِ وَالْحَدَبِ
وَلَّـی وقَـدْ أَلْجَـمَ الْخَطِّـیُّ مَنْطِقَهُ   بِسَـکْتَةٍ تَحْتَهَا الأَحْشَاءُ فی صَخَبِ
إِنْ یَعْدُ مِنْ حَرِّها عَدْوَ الظَّلِیمِ، فَقَدْ   أَوْسَـعْتَ جاحِمَها[2] مِنْ کَثْرَةِ الْحَطَبِ
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٣١)

ویختم الشــاعر قصیدته بالدعاء للمعتصم بأن یکافئ الله سعیه عمّا أسداه للدین من

١. الحَرَب: الویل والهلاک. (مصطفی وآخرون، ١٩٧٢م: ١٦٤)
٢. الجاحم: الجمر الشدید الاشتعال، والمکان الشدید الحرّ. (مصطفی وآخرون، ١٩٧٢م: ١٠٨)

جلائل الأعمال:

خَـليفَـةَ اللهِ جَـازَى اللهُ سَـعْـيَکَ   عَنْ جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْإسْلامِ وَالْحَسَبِ

(المصدر نفسه: ٣٢)

يقول العنبكى: «صحب أبوتمام المعتصم فى هذه المعركة فشـهد بنفسه وقائعها وسجّل مشاهدها ورسم أحداثها فكانت القصيدة بحق وثيقة تاريخية وشعرية مهمة.» (العنبكى، ٢٠٠٥م: ١٥٢)

فهذه القصيدة كما وصفها الدكتور شوقى ضيف: «أمّ ملاحمه» (ضيف، ١٤٢٧ق: ٢٨٣/٣)، وكما وصفها الدكتور الشكعة «من عيون الشعر العربى.» (الشكعة، ١٩٨٦م: ٦٧٠)

وفى القصيـدة انسـجام وترابط فكرى فالشـاعر يسـتهلها «بالمقارنة بين السـلاح والتنجيم، ويجعل السـلاح طريق الانتصـار، ثم يجعل فتح عمّوريّـة برهانا على صحة نظريته فيصف ذلک الفتح، ثم ينتقل إلى الخليفة الذى قام بذلک الفتح ويطرئ شجاعته وبطولته.» (الفاخورى، ١٩٨٦: ٧٣٣/١)

انتصار المسلمين على الروم بقيادة أبى سعيد الثغرى

يصف الشـاعر هزيمة الروم فى معركـة من المعارک التى خاضها أبوسـعيد الثغرى، ويبدأها بوصف الديار والتشبيب ثم يخلص بعد ذلک إلى مدح الممدوح ويبرز فى أبيات من القصيدة الجانب الدينى.

ثم يصوّر انتصار أبى سعيد الثغرى فى بعض معاركه مع الروم فى وقت الشتاء:

لَـقَدِ انْـصَعْتَ[١] وَالشِّتَاءُ لَـهُ وَجْـ   ـهٌ يَـرَاهُ الْكُمَاةُ جَهْمًـا قَطُوبَا

طَاعِنًـا مَنْحَـرَ الشَّـمَالِ مُتِيحًا   لِبِـ ـدِ الْعَـدُوِّ مَوْتًـا جَنُوبَـا

فِى لَـيَالٍ تَكَـادُ تُبْقِى بِخَدِّ الشَّـمْـ   ـسِ مِـنْ رِيحِهَـا الْبَلِيلِ شُـحُوبَا

سَـبِرَاتٍ[٢] إِذَا الْحُرُوبُ أُبِيخَتْ[٣]   هَـاجَ صِنَّبْرُ[٤] هَـا فَكَانَتْ حُرُوبَا

---

١. انصاع: رجع أو مرّ مُسرعا. (المصدر نفسه: ٥٢٨)

٢. السَّبْرَة: الغداة الباردة. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٥٢٨)

٣. أباخ النّار: أخْمدها. (المصدر نفسه: ٧٦)

٤. صِنَّبْر: الريح الباردة فى غيم. (المصدر نفسه: ٥٢٤)

فَضَرَبْتَ الشِّتَاءَ فِی اخْدَعَیْهِ   ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْدًا[۱] رَکُوبَا
لَوْ أَصَخْنَا مِنْ بَعْدِهَا لَسَمِعْنَا   لِقُلُوبِ الْأَیَّامِ مِنْکَ وَجِیبَا[۲]
کُلُّ حِصْنٍ مِنْ ذِی الکِلَاعِ وَأَکْشُو   ثَاءَ أَطْلَقْتَ فِیهِ یَوْمًا عَصِیبَا[۳]
وَصَلِیلًا مِنَ السُّیُوفِ مُرِنًّا   وَشِهَابًا مِنَ الحَرِیقِ ذَنُوبَا

(أبوتمام، ۱۹۸۱م: ۷۰)

هذه الأبیات تصوّر أعداء أبی سعید فی الشمال وقد أحاطت بهم الثلوج، وقدم أبو سعید بجیشه من الجنوب إلیهم مقتحمًا حصونهم فی الشمال رامیا إیّاهم بسهام الموت الزّؤام، ثم یستخدم الاستعاره المکنیة فی قوله "خدّ الشمس" فالریاح الممطرة تلطمه فتغیر لونه، وإذا سکنت الحرب فی هذه الأوقات الثلجیة هاجت العواصف الثّلجیة فأجّجت حربا أخری، ثم شبّه الشتاء، بناقة شریسة[٤] ضَرَبَ أبوسعید عرقی عنقها ضربةً جعلتها ناقة مسنة ذلولًا، ویخاطبه قائلًا: إنّک أطلقت فی الحصون یومًا شدید الهول سیوفًا مشهورة فی أیدی المقاتلین ونارًا تحرقهم.

إنّ الشاعر جاء بـ"عَصیب" مع "أطلقْت" لأنّ الإطلاق عنده ضد العصب.

ثم یواصل الشاعر قائلًا إنّ الأعداء أرادوا أن یوقعوا بجیشک لیلاً ولکنک یا شیخ السیاسة وصاحب التجربة أفسدت خططهم:

وَأَرَادُوکَ بِالْبَیَاتِ وَمَنْ هَـ   ـذَا یُرَادِی[٥] مُتَالِعًا[٦] وَعَسِیبَا[٧]؟
فَرَأَوْ قَشْعَمَ السِّیَاسَةِ قَدْ ثَقَّـ   ـفَ مِنْ جُنْدِهِ الْقَنَا وَالْقُلُوبَا
حَیَّةُ اللَّیْلِ یُشْمِسُ الْحَزْمُ مِنْهُ   إِنْ أَرَادَتْ شَمْسُ النَّهَارِ الْغُرُوبَا

(أبوتمام، ۱۹۸۱م: ۷۰)

والشاعر أجاد فی استخدام الجناس بین "أرادوا" و"یرادی".

۱. العَوْد: المُسنّ من الإبل. (المصدر نفسه: ٦٣٥)
۲. وَجَبَ القلبُ: خَفَق واضطرب ورجف. (المصدر نفسه: ۱۰۱۲)
۳. عصب الشیء: شدّه، ویوم عصیب: یوم شدید الحرّ والهول. (المصدر نفسه: ٦٠٣ و٦٠٤)
٤. ناقة شریسة: ذات شراس، بیّنة الشراس، سیئة الخلق. (المصدر نفسه: ٤٧٨)
٥. رادی عنه: دافع وناضل. (مصطفی وآخرون، ۱۹۷۲م: ٣٤٠)
٦. مُتالِعٌ: جبلٌ. (ابن منظور، ۱۹۸۸م: ٢/٤٤)
۷. عسیبٌ: اسم جبل. (المصدر نفسه: ۱۹۸/۹)

وإضافة إلى هجوم أبی سعید على الأعداء فی شدة البرد، أنّه یضبط أمره ویثقّف الرماح بالصّقل وقلوب الجنود بالصبر ثمّ یزحف فی الظُّلَم لذلک یشبّهه الشاعر بحیّة اللیل لأنّ «کثیرًا من الحیّات یرتقب اللیل فیخرج فیه لابتلاع فراخ الطائر الذی تقرب منه.» (التبریزی، ۱۹۹۲م: ۹۸/۱)

فالقائد یستعدّ للحرب فلا ینام فهو بجزمه وتدبیره یجعل اللیل مشمساً إشماس النهار، وربّما تعمّد أبوسعید أن یهجم على الرّوم فی هذا الوقت الصعب، لأنّ الروم لایتوقعون فیه هجمة من الجنوب، ولکن أبا سعید لم یکتف بهذه الهجمة الناجحة، بل أمر أحد قواده وهو محمّد بن معاذ الأزدی أن یهجم علیهم بعده، فقال أبوتمام:

ثُمَّ وَجَّهْتَ فَارِسَ الْأَزَدِ وَالْأَوْ حَدَ فِی النُّصْحِ مَشْهَدًا وَمَغِیبَا
فَتَصَلَّى مُحَمَّدُ بْنُ مَعَاذٍ جَمْرَةَ الحَرْبِ وَامْتَرَى الشُّؤْبُوبَا

(أبوتمام، ۱۹۸۱م: ۷۰)

یلوم الشاعر ممدوحه أباسعید على هذه الهجمة الثانیة الفاشلة ویقول له: إنک لم تشاور أحداً فیها، واعتمدت على رأیک ولو استشرت الآخرین لمنعوک من خوضها فکانت غزوة لم تلحقها غزوة أخرى، فیواصل قائلًا:

غَزْوَةٌ مُتْبِعٌ وَلَوْکَانَ رَأْیٌ لَمْ تَفَرَّدْ بِهِ لَکَانتْ سُلوبَا

(المصدر نفسه: ۷۰)

وفی قصیدة أخرى من قصائده الحربیة یصوّر لنا انسحاب الروم أمام الجیش العربی بقیادة أبی سعید محمد بن یوسف الثغری ویبدأ القصیدة بالغزل ویتغنّى بشجاعة هذا القائد العربی واصفا غزوه للروم:

لَوْ لا جِلادُ أبِی سَعیدٍ لَمْ یَزَلْ لِلثَّغْرِ صَدْرٌ ما عَلَیْهِ صِدارُ
قُدْتَ الجِیادَ کَأَنَّهُنَّ أَجَادلٌ[1] بِقُرى دَرَوْلِیَةٍ[2] لها أوْکارُ
حَتّى الْتَوى مِنْ نَقْعِ قَسْطَلِها[3] عَلى حِیطانِ قُسْطَنْطِینَةَ الإعْصارُ

۱. الأجدل: الصّقر، صفة غالبة وأصله من الجَدْل الّذی هو الشّدة وهی الأجادل. (مصطفى وآخرون، ۱۹۷۲م: ۱۱۱)
۲. دَرَوْلیّةُ: مدینة فی أرض الروم. (الحموی، ۱۹۵۷م: ۴۵۳/۲)
۳. القَسْطَلُ: الغبار فی الموقعة. (المصدر نفسه: ۷۳۴)

أَوْقَدْتَ مِـنْ دُونِ الخَليجِ لِأَهْلِها   نَـاراً لَها خَلْـفَ الخَلِيجِ شَـرارُ
إلاّ تَكُنْ حُصِرَتْ فَقَدْ أَضْحَى لَها   مِنْ خَوْفِ قَارِعَةِ الحِصَارِ حِصارُ
(المصدر نفسه: ٢٧٤)

فلولا مضاربته بالسـيف محاماةً عن الثغر، لكان الثغر خاليًا وكان بإمكان العدّو أن يتوغّل فيه ثّم يخاطبه: إنّک قدت الخيول التی تُشبه الأجادل التی أوكارها بقُرى دَرولية ومضيت بجنودک وخيلک كالأعاصير المدمّرة حتى حاصرت أسوار "قسطنطينية".

ثّم يصف النار التى أضرمها أبوسعيد حول قراها فحمل الهواء شررها إلى خليج "البسفور"، فبات أهلها فى خوف وذعر حين رأوا هذا الشرر الذى يستضىء به العسكر خلف الخليج، فعلموا أنهم محاصرون وإن لم يحاصروا فخوفهم من الحصار كان حصارًا عليهم.

وقد جاء الشاعر بكلمتى قسطنطينية وقسطل وهذا «تجنيس الصدر لأنّ أول الكلمتين متشابه.» (التبريزى، ١٩٩٢م: ٣١٩/١)

ويصف أبوتمام حال الروم حين غزاهم أبوسعيد بأنّهم أدركوا عجزهم أمامه، فدفعهم الجبن إلى الفرار فلم ينفعهم ذلک لأنّ أبا سـعيد منعهم من الفرار بالقتل والأسر، وأقام الحرب فى كل مكان، ثمّ يصوّر الشـاعر كيف سـار إليهم من دروب الروم جيش عظيم ذولجب تضجّ منه الأرض فيسمع لها صوت وكأنّه خوار البقر:

خَشَعوا لِصَوْلَتِکَ الّتی هی عِنْدَهُمْ   كَالمَـوْتِ يَـأْتی لَيْـسَ فِيـهِ عَارُ
لَمّا فَصَلْـتَ مِنَ الـدُّروبِ إلَيْهِمِ   بِعَرَمْـرَمٍ لِـلأرْضِ مِنْهُ خُـوَارُ[1]
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٢٧٤)

إنّ أباسـعيد كان من حماة الثغور أكثر من سبع عشرة سنة فكان يعرف الطرق جيداً، فإن غزا مبكراً أرشـدته الأماكـن المرتفعة التى عليها الأعلام وإن سـرى ليلا اهتدى بالنجـوم، فلمّا بلـغ حصن "الحمّة البيضـاء" كأنّه كان على موعـد معه وهناک حصن "القُفل" الذى لا بدّ له من اجتيازه، و"الخليج" شعار الروم فى الحرب لأنهم ينسبون إليه فيقول الشاعر:

١. الخُوار: من صوت البقر والظّباء والسهام. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٢٦١)

إنْ يَبْتَكِرْ تُرْشِدْهُ أَعْلامُ الصُّوَى[١] أَوْ يَسْرِ لَيْلاً فَالنُّجُومُ مَنارُ
فَالْحَمَّةُ الْبَيْضاءُ مِيعادٌ لَهُمْ وَالْقُفْلُ حَتْمٌ وَالْخَلِيجُ شِعارُ
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٢٧٥)

فأبوتمام يصور الحالة النفسية للروم وما أصابهم من خوف وفزع فقد أدركوا أنّ غزو أبی سعيد لهم يساوی هلاكهم، وقد ظهرت ملامح الرعب عليهم فصار مشيهم خفيًّا ونداؤهم إيماءً وحديثهم سرًّا، لأنهم كانوا يخافون من سطوته وبأسه:

عَلِمُوا بِأَنَّ الغَزْوَ كانَ كَمِثْلِهِ غَزْوًا وَأَنَّ الغَزْوَ مِنْکَ بَوارُ
فَالْمَشْیُ هَمْسٌ والنِّداءُ إشارَةٌ خَوْفَ انْتِقَامِکَ وَالحَدِيثُ سِرارُ
(المصدر نفسه: ٢٧٥)

ثم يرسم هروب "منويل" قائد الروم، فيسخر من ما حلّ به من الجبن حتّى يتمنّى أن كل مدينة لو تصير جبلاً منيعا يحتمی به وكل حصن يصبح غاراً يختبیء فيه، حان الآن وقت الانتقام، فـ"منويل" يسمع جبلة القتال وصراخه ويری بأم عينيه عجاج الموت، وعندما يری فلول جيشه المنهزم وقد جاؤوا يشكون إليه ماحلّ بهم من هزمة لم يستطع أن يمدّهم بشیء إلّا بدموعه الغزيرة ويضرب هذه الأمثال الثلاثة "الصبر أجمل"، و"القضاء مسلطٌ"، و"الشرّ فيه خيار"، ويخاطب "منويل":

لَمّا أَتَتْکَ فُلُولُهُمْ أَمْدَدْتَهُمْ بِسَوابِقِ العَبَراتِ وَهْی غِزارُ
وَضَرَبْتَ أَمْثالَ الذَّلِيلِ وَقَدْ تَری أَنْ غَيْرُ ذاکَ النَّقْضُ وَالإمْرارُ
الصَّبْرُ أَجْمَلُ وَالْقَضَاءُ مُسَلَّطٌ فَارْضَوْا بِهِ وَالشَّرُّ فِيهِ خِيارُ
(المصدر نفسه: ٢٧٦)

ويمضی فی خطابه لقائد الروم قائلاً: هيهات لک الفرار فقد نازعک الأعنّة شجاع، فقد جذبتها لتهرب وجذبها فغلبک. وأبوسعيد مضی فی طلبک ولو اعترضت له دونک النار لاقتحمها بنفسه:

هَيْهاتَ جاذَبَکَ الأعِنَّةَ باسِلٌ يُعْطِی الأَسِنَّةَ كُلَّ ما تَخْتارُ

١. الصُّوة: ما نُصب من الحجارة ليستدلّ به علی الطريق (ج) صُوًی. (المصدر نفسه: ٥٣٠)

فَمَضَى لَوْ أنَّ النّارَ دُونَکَ خاضَها   بِالسَّـيْفِ إلاّ أنْ تَکـونَ النّـارُ
حَتّى يَؤُوبَ الحَقُّ وَهْوَ الْمُشْتَفى   مِنْکُـمْ وَمَـا لِلدّينِ فِيکُـمْ ثارُ
(المصدر نفسه: ٢٧٦)

فالشـاعر فی هذه الأبيات يرسم لنا صورة البطل الشجاع الذی يحمی الثغور ويبثّ الرعـب فی قلوب الأعداء، فهم يرفعون أصواتهم من الرعب، لأنّهم علموا بأنّه لايقضی ما عليه من حقّ الإسلام إلا عندما يهلک هؤلاء الکفّار، وهو لايزال حَذِرًا يَقِظًا يخاف المشـرکون من شـرّه وبأسـه ويخضعون أمامه و«إنه أبداً يکون فی الجهاد إما بالمسافرة إلی ديار الکفّار مجاهداً وغازياً، وإمّا بإعمال الفکر فيما يضّرهم [ويکسـر شـوکتهم] ويذلّهم.» (التبريزی، ١٩٩٢م: ٣٢٢/١)

يَقِظٌ يَخافُ الْمُشْـرِکُونَ شَذاتَهُ   مُتَواضِـعٌ يَعْنُـو[١] لَـهُ الْجَبّارُ
ذُلُلٌ رَکائِبُهُ إذا ما اسْتَأْخَرَتْ   أسْـفارُهُ فَهُمُومُـــهُ أَسْـفَارُ
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٢٧٨)

ثم يواصل الشـاعر المدح ويـبرز المعانی الدينية فی بعض الأبيـات «لأنّه لا يراها حربًا بين ملک الروم ونظيره العربی، بل يراها حربًا بين التوحيد والشـرک.» (عيسـی، ٢٠١٠م: ١١٣)

وفی قصيدة أخری يخلّد أبوتمام انتصار أبی سعيد علی الروم فی موقعة "وادی عقرقس" وانتصاره علی الخرميّة فيخاطبه قائلًا:

جَدَعْتَ لَهُمْ أَنْفَ الضَّلالِ بِوَقْعَةٍ   تخَرَّمَ فی غَمـّائِهـا مَنْ تَخَرّما
ثَلِمْتَهُـمُ بِالْمَشْـرَفِیِّ وَقَلَّمـا   تَثَلَّـمَ عِـزُّ الْقَـوْمِ إلّا تَهَدَّما
قَطَعْتَ بَنانَ الْکُفْرِ مِنْهُمْ بِمَيْمَذٍ   وَأَتْبَعْتَهـا بالرّومِ کَفًّا وَمِعْصَما
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٥٤٤)

فيبـدأ القصيدة بالغزل ثمّ يخلص إلـی مدح الممدوح ويتغنّـی بانتصاره علی بابک وأصحابـه وانتصاره علی الروم فی موقعة "وادی عقرقس" ويصف لنا تفاصيل ما جری فی هذه الموقعة، ويشـيد بجهود قائدين من قوّاد أبی سـعيد هما "بشر" و"محمد بن معاذ"،

١. عنا: خضع وذلّ. (مصطفی وآخرون، ١٩٧٢م: ٦٣٣)

ويشــير إلى أنّهما واجها مقاومة شرســة من الروم حتّى كاد أن ينهزما ولكن أبا سعيد أنقذهما فحصل النصر على يديه؛ فيقول:

رَأَى الرُّومُ صُبْحًا أَنَّهَا هِيَ إِذْ رَأَوْا   غَــدَاةَ الْتَقَى الزَّحْفَــان أَنَّهُمَا هُمَا
هِزَبْــرَا غَرِيف شَــدَّ مِــنْ أَبْهَرَيْهِمَا   وَمَتْنَيْهِمَــا قُــرْبَ الْمُزَعْفَــرِ مِنْهُمَا
فَأُعْطِيــتَ يَوْمًــا لَــوْ تَمَنَّيْــتَ مِثْلَهُ   لَأَعْجَــزَ رَيْعَــانَ الْمُنَــى وَالتَّوَهُّمَا
لَحِقْتَهُمَــا فِي سَــاعَةٍ لَــوْ تَأَخَّرَتْ   لَقَــدْ زَجَرَ الْإِسْــلَامُ طَائِرَ أَشْــأَمَا
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٥٤٦)

فالشــاعر يصف هزيمة الروم فى "وادى عقرقس" ويحدّد زمان المعركة بيوم (السبت) ويقول: كانت هذه الموقعة فى يوم السبت فلولا أنّ المسلمين والعرب يعظّمون يوم الجمعة ويجعلونه كالعيد، لاتّخذوا السبت عيداً إلى يوم الدين:

فَــإِنْ يَــكُ نَصْرَانِيّاً النَّهْــرُ آلسّ   فَقَدْ وَجَدُوا وَادِى عَقَرْقُسَ مُسْلِمَا
بِــهِ سُبِتُوا فِى السَّبْتِ بِالْبِيضِ وَالْقَنَا   سُــبَاتاً ثَوَوْا مِنْهُ إِلَى الْحَشْــرِ نُوَّمَا
فَلَــوْ لَمْ يُقَصِّــرْ بِالْعَرُوبَــةِ لَمْ يَزَلْ   لَنَــا عُمُــرَ الْأَيَّــامِ عِيــداً وَمَوْسِمَا
(أبوتمام، ١٩٨١م: ٥٤٧)

ثمّ يصــف ما حلّ بالرّوم فى هذا اليوم حيــث صارت جثثهم طعامًا للطّيور الجارحة والوحوش، وكان ذلك اليوم عرساً للإسلام ومأتماً للشرك والكفر فيقول:

وَلَمْ يَبْقَ فِى أَرْضِ الْبقلّار طَائِرٌ   وَلا سَــبْعٌ إِلَّا وَقَدْ بَاتَ مُولِمَا[1]
وَلَا رَفَعُوا فِى ذَلِكَ الْيَوْمِ أَثْلَبًا[2]   وَلَا حَجَــراً إِلَّا رَأَوْا تَحْتَهُ دَمَا
(المصدر نفسه: ٥٤٨)

إنّ الشاعر يصوّر لنا هزيمة الرّوم أمام المسلمين فى قصيدة أخرى من قصائده المدحية، فالممدوح هو أبو ســعيد الثغرى، والشــاعر يبدأ القصيدة هذه بمقدمة غزلية ثمّ ينتقل إلى مدح أبى سعيد الثغرى من خلال وصف معركة مع الرّوم فيقول:

رُمِيَتْ مِن أَبِى سَــعِيدٍ صَفَاةُ الــ   ــرُّومِ جَمْعاً بِالصَّيْلَمِ[3] الْخَنْفَقِيقِ[4]

١. أوْلم فلانٌ: عَمل وليمةً. [المُولم: الوليمة.] (المصدر نفسه: ١٠٥٧)
٢. الإِثْلبُ والأَثْلَبُ: التراب والحجارة. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٩٩)
٣. الصَّيْلَمُ: الداهية تستأصل ما تصيب. (المصدر نفسه: ٥٢١)
٤. الخَنْفَقيقُ: الداهية. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٩١٤/٢)

بِالْأَسِيلِ الْغِطْرِيفِ وَالذَّهَبِ الْإِبْـ ـرِيزِ فِينَـا وَالْأَرْوَعِ الْغِرْنِيقِ[١]
فِي كُمَاةٍ يُكْسَوْنَ نَسْجَ السَّلُوقِيِّ وَتَغْـدُو بِهِـمْ كِلَابُ سَـلُوقِ[٢]
يَتَسَاقَوْنَ فِي الْوَغَى كَأْسَ مَوْتٍ وَهْيَ مَوْصُولَةٌ بِـكَأْسِ رَحِيقِ
وَطِئَتْ هَامَةَ الضَّوَاحِي إِلَى أَنْ أَخَـذَتْ حَقَّهَا مِـنَ الْفَيْذوقِ[٣]
أَلْهَبَتْهَا السِّيَاطُ حَتَّى إِذَا اسْتَنَّـ ـتْ بِإِطْلَاقِهَا عَلَى النَّاطَلُوقِ[٤]

(المصدر نفسه: ٤٠٠)

فالشاعر يمدح أبا سعيد بأنّه ينزل على الرّوم الداهية الدهياء ويصوّر جنوده وعليهم الدروع السلوقية ويشبّه الخيول بكلاب سلوق، لأنّ الخيل تُشبه الكلب في خلقه، ثمّ يختم القصيدة بالمديح والثّناء وطلب العطاء.

ويحدّد لنا في أثناء القصيدة الطريق التي قطعها أبوسعيد والضّواحي التي وصل إليها من مثل: "الفيدوق"، و"الناطلوق"، و"الإبسيق".

ثمّ يصور أنّ أباسعيد يهجم على "دَرولية" وسوقها ويبدّل هذه السوق بسوق موت ويغادرها وقد توزّع جنود الأعداء بين هاربين من حريق السيف وواقعين في النّار، بعد ذلك يصل إلى خليج "البوسفور" ويقتحم بعض الحصون والمواقع الرّومية، وقد كسب من الغنائم ما لم يجده من قبل في "ماشان" و"الرّزيق" ولو لا أن خيله أعيت لواصَل غزوه فلم يكن صعباً عليه أن يواصل فتوحاته في تلك البلاد إلى أن يصل إلى أقصى بلاد الرّوم، نرى ذلك على شاكلة قوله:

ثُمَّ أَلْقَـى عَلَـى دَرَوْلِيَـةَ الْـبَرْ كَ مُحِلّـاً بِالْيُمْـنِ وَالتَّوْفِيـقِ
فَحَـوَى سُـوقَهَا وَغَـادَرَ فِيهَـا سُوقَ مَوْتٍ طَمَتْ[٥] عَلَى كُلِّ سُوقِ
فَهُـمْ هَارِبُـونَ بَيْنَ حَرِيقِ السَّـ ـيْـفِ صَلْتـاً وَبَيْنَ نَـارِ الْحَرِيقِ
وَاجِـداً بِالْخَلِيجِ مَـا لَمْ يَجِدْ قَطُّ بِـمَـاشَـانَ لَا وَلَا بِالزَّرِيـقِ

١. الغِرْنيقُ والغِرْنَيْقُ: الأبيض الشابّ الناعم الجميل. (المصدر نفسه: ٩٨٢/٤)
٢. سَلوقُ: قرية باليمن تنسب إليها الكلاب الجياد والدّروع الجيّدة. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٤٤٤)
٣. الفَيْذوقية (ذال معجمة): موضع في الشعر ذكره أبوتمام. (الحموى، ١٩٥٧م: ٢١٠/٤)
٤. النّاطَلوق: موضع في الشعر ذكره أبوتمام. (المصدر نفسه: ٢٥٢/٥)
٥. طَما الماء: ارتفع وملأ النهر [هنا بمعنى غلب.] (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٥٦٧)

وَلَـوْ أَنَّ الْجِيَـادَ لَمْ تَعْصِـهِ كَا نَ لَدَيْهِ السَّـحِيقُ غَيْرَ السَّحِيقِ[1]

(المصدر نفسه: ٤٠١)

ثمّ يشير الشاعر إلى تلك الموقعة التى هزّت أصداؤها أنحاء "القسطنطنية" عاصمة الرّوم وجعلت "البطريق" ملک الرّوم يستغيث بأنصاره استغاثة بلا فائدة وقد كثر أسرى الرّوم وقتلاهم وقد تجلّت عظمة القائد أبى سعيد وحسن إدارته للحرب إذ يعلو صوته ساعة الجدّ.

ثمّ يشيد بانتصاره فى معركة "وادى عقرقس" فى بلاد الروم، ويبرز الجانب الدّينى قائلاً:

جَأَرَ[2] الدِّينُ وَاسْتَغَاثَ بِکَ الْإِسْـ ـلَامُ لِلنَّصْـرِ مُسْـتَغَاثَ الْغَرِيقِ

(المصدر نفسه: ٤٠٣)

ويشير إلى ما لحق بالرّوم من هزيمة ساحقة وإلى استخدام جيش أبى سعيد "المنجنيق" فى الحرب فيقول:

وَأَصَاخُـوا كَأَنَّمَـا كَانَ يَرْمِيـ ـهِمْ بِذَاکَ التَّدْبِيرِ مِنْ مَنْجَنِيقِ

(المصدر نفسه: ٤٠٣)

ثمّ يصف غزوتيه فى الشتاء اللّتين اجتاح فيهما قريتين من قرى الرّوم وهما "صاغرى" و"أوقَضى"، ولكن أبا سعيد خاف على جنوده من أن يلحقهم مكروه من البرد فرجع وآب، وقد أبغض المطر والبرد اللّذين منعاه من مواصلة غزواته:

أَوْرَثَتْ «صَاغِرَى» صَغَاراً وَرَغْماً وَقَضَتْ «أَوْقَضَى» قُبَيْلَ الشُّرُوقِ
لَا تُبَالِى بَوَارِقَ الْبِيضِ وَالسُّـمْـ ـرِ وَلَكِـنْ بَالَيْـتَ لَمْـعَ الْـبرُُوقِ

(المصدر نفسه: ٤٠٤)

الشاعر يتغنّى بأيّام أبى سعيد الحسان وفتوحاته وغزواته، ويشيد بمآثره وأمجاده.

صورة الرّوم فى قصائد أبى فراس الحمدانى

إنّ الرّوميّات تشغل حيّزاً وسيعاً من ديوان أبى فراس ولا نستطيع أن نرتّبها ترتيباً تاريخياً لأنّها لا تتضمّن تواريخ محدّدة ولا تشتمل على سياق تاريخىّ متتابع.

يشير الشاعر فى إحدى رسائله الرّومية إلى القيود فى رجليه:

---

١. سَحُق الشىء: بعُد أشدّ البُعد. (المصدر نفسه: ٤٢٠)
٢. جأر: رفع صوته. (المصدر نفسه: ١٠٣)

يَا مَنْ رَأَى لِى، بِحِصْنِ «خَرْشَنَةٍ»   أُسْدَ شَرًى، فى الْقُيُودِ أَرْجُلُهَا!
يَا مَنْ رَأَى لِيَ الدُّرُوبَ، شَامِخَةً   دُونَ لِقَاءِ الْحَبِيبِ أَطْوَلُهَا
(أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ٢٦٣)

الشاعر أيضًا فى رائيته الكبرى يهنّئ سيف الدولة بإيقاعه بالقبائل التى جمّعت على مخالفته ويبدأها بالغزل على عادة شعراء العرب القدامى ثمّ يفتخر بفروسيته ويمجد قومه ذاكراً أيام أسلافه وأعمامه.

إنّ الثغور كان لها بعد محسوس فى الشعر العربى، والثغر عند أبى فراس والدفاع عنه وصد الغزوات أصبح داءً لايواسيه إلّا سيف الدولة فيقول:

أَسَا دَاءَ ثَغْرٍ كَانَ أَعْيَا دَوَاؤُهُ   وَفِى قَلْبِ مَلْكِ الرُّومِ دَاءٌ مُخَامِرُ
بَنَى ثَغْرَهَا الْبَاقِى عَلَى الدَّهْرِ ذِكْرُهُ   نَتَائِجُ فِيهَا السَّابِقَاتُ الضَّوَامِرُ
(المصدر نفسه: ١٢٩)

وفى هذه القصيدة يصف غزوة أبى العلاء سعيد بن حمدان (أبيه) الذى أوغل فى بلاد الرّوم غازياً فيقول:

غَزَا الرُّومَ لَمْ يَقْصِدْ جَوَانِبَ غِرَّةٍ   وَلَا سَبَقَتْهُ بِالْمُرَادِ النَّذَائِرُ
فَلَمْ تَرَ إِلَّا فَالِقًا هَامَ فَيْلَقٍ،   وَبَحْرًا لَهُ تَحْتَ الْعَجَاجَةِ مَاخِرُ
(المصدر نفسه: ١٣٧)

فساحة الوغى امتلأت بالدّماء حتّى أصبحت وكأنّها بحر تجرى عليه أجساد الأعداء كالسفن. ثمّ يذكر سيف الدولة صاحب حلب وناصر الدولة صاحب الموصل ويبرز الجانب الدينى بقوله:

فَفِينَا لِدِينِ اللهِ عِزٌّ وَمَنْعَةٌ   وَفِينَا لِدِينِ اللهِ «سَيْفٌ» وَ«نَاصِرُ»
(المصدر نفسه: ١٣٧)

ويشير إلى بناء سيف الدولة لرَعْبانَ والحَدَث من بلاد الروم:

بَنَاهُنَّ بَانِى الثَّغْرِ، وَالثَّغْرُ دَارِسٌ،   وَعَامِرُ دِينِ اللهِ، وَالدّينُ دَاثِرُ
(المصدر نفسه: ١٣٩)

فالممدوح لا يعمر الثغور التى تقادم عهدها فحسب بل يحيى الدين.
ثمّ يواصل قائلاً:

وَشَقَّ إِلَى ثَغْرِ «الدُّمُسْتُقِ[١]» جَيْشُهُ، بِأَرْضِ «سُــلَامٍ[٢]» وَالْقَنَا مُتَشَاجِرُ
سَقَى "أَرْسَنَاسًا" مِثْلَهُ مِنْ دِمَائِهِمْ، عَشِــيَّةَ غَصَّتْ بِالْقُلُوبِ الْحَنَاجِرُ
وَأَوْرَدَهَــا أَعْلَى "قَلُونِيَّــةَ" امْرُؤٌ بَعِيدُ مُغَارِ الجَيْشِ، أَلْوَى[٣]، مُخَاطِرُ

(المصدر نفسه: ١٤٠)

وفى الشطر الثانى من البيت الثانى نرى قوله متأثرا بقوله تعالى ﴿وَإِذْ زاغَتِ الأَبْصارُ وبَلَغَتِ الْقُلوبُ الْحَناجِرَ﴾ (الأحزاب :١٠)

ثمّ يصوّر لنا فى لوحة متكاملة مسيرة الجيش ومواقع القتال:

رَأى الصِّهْرَ، وَالرُّسْــلِ، الَّذِى هُوَ عَاقِدٌ، يُنَــالُ بِــهِ مَــا لَا تَنَــالُ الْعَسَــاكِرُ
وَأَوْقَــعَ فِى «جُلْبَــاطَ»[٤] بِـالــرُّومِ وَقْعَةً بِهَا «الْعَمْقُ[٥]» وَ"اللُّكَامُ[٦]" وَ"الْبُرْجُ[٧]" فَاخِـ
وَأَوْرَدَهَــا بَـطْــنَ «اللُّقَــانِ[٨]» وَظَهْــرَهُ ـرُ يَطَــأْنَ بِــهِ الْقَتْلَى، خِفَافًــا[٩] حَوَادِرُ[١٠]
أَخَــذْنَ بِأَنْفَــاسِ "الدُّمُسْــتُقِ" وَابْنِــهِ وَعَبَّــرْنَ بِالتِّيجَــانِ مَــنْ هُــوَ عَابِــرُ!
وَجُــ ـَ ـْ بِــلَادَ "الــرُّومِ" سِــتِّينَ لَيْلَــةً، تُغَــاوِرُ[١١] مَلْــكَ الــرُّومِ، فِيمَــنْ تُغَاوِرُ
تَخِــرُّ لَنَــا تِلْــكَ الْمَعَاقِــلُ سُــجَّداً، وَتَرْمِــى لَنَــا بِالأَهْــلِ تِلْــكَ الْمَطَامِرُ[١٢]

(أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ١٤١)

فتتوالى أسماء المدن التى خضع أهاليها لجيشــه مثل "جلباط"، و"العَمق"، و"اللُكام"،

١. الدّمُسْتُق: قائد جيش الروم. (أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ١٤٢)
٢. سُلامٌ: موضع عند قصر مقاتل بين عين التمر والشام. (الحموى، ١٩٥٧م: ٦٣٤/٣)
٣. لوى: اشتدّت خصومته وصار جدلا سليطًا. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٨٤٨)
٤. جُلْبــاطُ: ناحية بجبل اللكّام بين أنطاكية ومرعش، كانت بها وقعة لســيف الدولة بن حمدان بالروم. (الحموى، ١٩٥٧م: ١٥٠/٢)
٥. العَمْقُ: كورة بنواحى حلب بالشام الآن وكان أولًا من نواحى أنطاكية. (المصدر نفسه: ١٥٦/٤)
٦. اللُــكام: هو الجبل المشــرف على أنطاكية، وبلاد ابن ليون، والمصيصة، وطرســوس، وتلك الثغور. (المصدر نفسه: ٢٢/٥)
٧. بُـرْجُ الرّصاص: قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية. (المصدر نفسه: ٣٧٣/١)
٨. اللُّقان: بلد بالروم وراء خرشنة بيومين، غزاه سيف الدولة. (المصدر نفسه: ٢١/٥)
٩. خفَّ: أسرع ونشط. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٢٤٧)
١٠. الحادر: الممتلئ البدن. (المصدر نفسه: ١٦١)
١١. غاور القوم مغاورة، غِوارًا: أغار بعضهم على بعض. والعدوّ القومَ: أغار عليهم. (المصدر نفسه: ٦٦٥)
١٢. المِطْمَرُ: خَيْط البنّاء (ج) مَطامِر. (المصدر نفسه: ٥٦٥)

و"البرج"، و"اللُّقان".

ويواصل أبو فراس قوله إنّ سـيف الدولة يشتبک مع الدمستق وراء مرعش فيوقع به ويهزم جيشـه ثمّ يقتل "لاون" البطريق ويأسـر قسـطنطين بن الدمستق الذى ظلّ فى أسره حتى مات، فيقول واصفاً فرار الدمستق وضربه فى وجهه:

وَولّى عَلى الرَّسْمِ «الدُّمستق» هارِبًا   وَفى وَجْهِهِ عُذْرٌ مِنَ السَّـيْفِ عاذِرُ

(المصدر نفسه: ١٤٢)

يقول الدكتور يوسف بكّار:

«عظم الأمر على الدمستق للذى حدث عام ٣٤٢ق، فأراد أن يثأر، وجمع عام ٣٤٢ق عسـاكر من الرّوم والأرمن والروس والصقلب والسّلاف، وقصد الثغور، والتقى مع سيف الدولة عند "الحدث" فكانت معركة شديدة، كتب لسيف الدولة أن ينتصر فيها نصراً مؤزراً، وانهزم الروم وقتل منهم وممّن معهم خلق عظيم، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته، وعاد الدمستق مهزوماً مسلولاً» (بكار، ٢٠٠٠م: ٥٦)، وفى هذا قال أبو فراس:

وَحَسْبِى بِهَا يَوْمَ «الْأُحَيْدِبِ» وَقْعَةً!   عَلَى مِثْلِهَا فِى الْعِزِّ تُثْنَى الْخَنَاصِرُ[1]

عَدَلْنَا بِهَا فى قِسْـمَةِ الْمَوْتِ بَيْنَهُمْ،   وَلِلسَّـيْفِ حُكْـمٌ فِى الْكَتِيبَةِ جَائِرُ

(أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ١٤٢)

ويصدر أبو فراس فى رومياته عن كراهية شـديدة للـروم ويصفهم بأوصاف ذميمة، فهو حين يسـأل سـيف الدولة المفاداة بأحد قوّاد الرّوم الأسرى يصفه بـ"كلب الروم" ويستحثه على الفداء قائلاً:

أُنَادِيـكَ لا أَنِّى أَخَافُ مِـنَ الرَّدَى   وَلَا أَرْتَجِـى تَأْخِـيرَ يَـوْمٍ إِلَـى غَدِ

وَلَكِـنْ أَنِفْـتُ الْمَـوْتَ فِى دَارِ غُرْبَةٍ،   بِأَيْدِى النَّصَـارَى الْغُلْفِ[2] مِيتَةَ أَكْمَدِ

فَـلَا كَانَ كَلْـبُ الـرُّومِ أَرْأَفَ مِنْكُمُ   وَأَرْغَـبَ فِى كَسْـبِ الثَّنَـاءِ الْمُخَلَّدِ

(المصدر نفسه: ٩٧)

وفى قصيدة أخرى يصف سـيف الدولة بأنّه القرم الذى يحمل أثقال المواقف الصعبة

١. فلان تُثنى به أو إليه الخَناصر: يبدأ به إذا ذكر أشكاله وأمثاله لشرفه. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٢٥٩)
٢. الغُلْف: جمع أَغْلَف وغلامٌ أَغْلف:لم يُخْتنْ كأَقْلَف. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ١٠٠٦/٤)

بخيل ضامرة وسيوف قواطع ورماح ليّنة وجيوش قويّة:

مَا زالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ ٱلْقَرْمَ الّذِى   يَلْقَى الْجَسِيمَ وَيَحْمِلُ الْأَثْقَالا
بِالْخَيْلِ ضُمْرًا والسُّيُوفِ قَواضِبًا   وَالسُّمْرِ لُدْنًا والرِّجالِ عِجَالا
(المصدر نفسه: ٢٤٣)

ثم ينتقل الشاعر من الغائب إلى الحاضر إذ يقول:

صِفْنا بِخَرْشَنَةٍ وَقَطَّعْنا الشِّتَا   وَبَنُو البَوَادى فى «قُمَيْرَ» حِلالا[١]
(المصدر نفسه: ٢٤٣)

إنّا مضيْنا الصيف وبعض الشتاء بخرشنة والذين كانوا يعيشون فى بوادى قُمير، كانوا بمنزلة أسلحتنا فى الحروب.

والفارس الشاعر أبو فراس يرى سنابک خيل سيف الدولة تطأ أرض الروم فى كلّ مرّة يتجرّأون على مهاجمة أرضه لا يقيهم سهل ولا جبل من غاراته:

قَدْ ضَجَّ جَيْشُکَ، مِنْ طُولِ الْقِتَالِ بِهِ،   وَقَدْ شَكَتْکَ إِلَيْنَا الْخَيْلُ وَالإِبِلُ!
وَقَدْ دَرَى الرُّومُ، مُذْ جَاوَرْتَ أَرْضَهُمُ   أَنْ لَيْسَ يَعْصِمُهُمْ سَهْلٌ، وَلا جَبَلُ
(المصدر نفسه: ٢٥٧)

وفى قصيدة أخرى يبرز الجانب الدينى ويرى أنّ الكفر مغلوب والإسلام غالب حيث يقول:

فَقُلْ لـ «ابْنِ فُقَّاسٍ[٢]» دَعِ الْحَرْبَ جَانِبًا   فَإِنَّکَ رُومِيٌّ، وَخَصْمُکَ مُسْلِمُ
فَوَجْهُکَ مَضْرُوبٌ، وَأُمُّکَ ثَاكِلٌ   وَسِبْطُکَ مَأْسُورٌ، وَعِرْسُکَ أَيِّمُ!
وَلَمْ تَنْبُ[٣] عَنْکَ الْبِيضُ فِى كُلِّ مَشْهَدٍ   وَلَكِنَّ قَتْلَ الشَّيْخِ فِينَا، مُحَرَّمُ
(المصدر نفسه: ٢٩٥)

وفى قصيدة أخرى يصوّر الشاعر خوف الدمستق وبطولة فرسه ويوضح أنّه لم ينجُ إلاّ بجواده الأدهم، فلو لم ينقذه فرسه من بطشنا كنّا نجعل القيد فى رجله، فهو نجا ولكن حماته توزّعوا بين مصفودين بالأغلال ومجروحين بالأسياف والأرماح، ثمّ يذكر أسماء الذين أُسِروا ويذكر إثخان المسلمين فى أهل خرشنة قائلًا:

١. الحُلّة: السلاح (ج) الحِلال. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ١٩٤)
٢. ابن فُقّاس: نقفور فوكاس. (أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ٢٩٥)
٣. نبا السيف عن الضّريبة: لم يصبها. (المصدر نفسه: ٨٩٩)

لَمَّــا بَرَزْنَــا «لِلدُّمُسْــتُقِ»، مَــرَّةً وَرَأَى بَــوَادِرَ خَيْلِنَــا كَالأَسْــهُم
طَلَــبَ النَّجَــاءَ بِنَفْسِــهِ، فَتَحَكَّمَــتْ فِى جَيْشِــهِ الأَسْــيَافُ أَىَّ تَحَكُّــم
لَــوْلَا الْجَــوَادُ الأَدْهَــمُ النَّاجِــى بِــهِ أَضْحَــتْ قَوَائِــمُ رِجْلِــهِ فِى الأَدْهَم
وَلَئِــنْ نَجَــا؛ فَرِجَالُــهُ وَحُمَاتُــه مَــا بَــيْنَ مَصْفُــودٍ، وَبَــيْنَ مُكَلَّــم
قُدْنَا «الْبِرُطْسِيسَ» اللَّعِينَ وَجِىءَ بِا «لْـ ـعِشْــنِيطِ»[١] مَخْضُوبَ الْجَوَانِبِ بِالدَّم
سَلْ أَهْلَ «خَرْشَــنَةٍ» تُجِبْكَ نِسَاؤُهُمْ كَــمْ ثَــاكِلٍ مِنْهَا، وَكَــمْ مِــنْ أَيِّمٍ[٢]؟!

(المصدر نفسه: ٣١٤)

وفى قصيدة أخرى يكتب إلى سـيف الدولة من الأسـر فى بلد الروم ويُعلمه بخروج الدمســتق إلى الشام ويناديه أن يستعدّ لمواجهته ويسأله تقديم الفداء فيقول داعيا إلى الغضب لدين الله:

«سَيْفَ الْهُدَى» مِنْ حَدِّ سَيْفِكَ يُرْتَجَى يَــوْمٌ يُــذِلُّ الْكُفْــرَ لِلْإِيمَــانِ
هَــذِى الْجُيُوشُ، تَجِيشُ نَحْــوَ بِلَادِكُمْ مَحْفُوفَــةً بِالْكُفْــرِ وَالصُّلْبَــانِ
غَضَبــاً لِدِيــنِ اللهِ إِنْ لَا تَغْضَبُــوا لَمْ يَشْــتَهِرْ فِى نَصْــرِهِ سَــيْفَانِ
حَتَّــى كَأَنَّ الْوَحْــىَ فِيكُــمْ مُنْــزَلٌ وَلَكُــمْ تَخَــصُّ فَضَائِــلُ الْقُــرْآنِ

(المصدر نفسه: ٣٤٢)

ويردّ بقصيدة جدلية على الدمســتق لمناظرة جرت بينهما حينما قال له الدمســتق: «إنّما أنتم كتّاب ولستم بأصحاب سيوف ومن أين تعرفون الحرب؟ يردّ عليه أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستّين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟» (البستانى، ١٩٦٨م: ٣٧٢)

على أثر هذه المناظرة التى أنكر الدمســتق على العرب خصائص الحرب ومناقبها، «ازدحمت فى صدر أبى فراس ذكريات الحروب وهو فى أسـره وما كسب المسلمون فيها مــن النصر على الــروم فراح يذكر –فى قطعة واحدة– مفاخــر الحمدانيين فى الحروب البيزنطية وأسرى الروم [...].» (المحاسنى، ١٩٦١م: ٣٠١)

إنّه يعير الدمستق ويزجره ويقدم صورته فى البيت الأوّل بأنّه ضخم العنق:

١. البُرُطْسيس والعِشْنيط: من قوّاد الروم. (أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ٣١٤)
٢. الأيِّم: العَزَب، رجلا كان أو امرأة، تزوّج من قبل أو لم يتزوّج. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٣٥)

أَ تَزْعَـمُ؛ يَا ضَخْـمَ اللَّغَادِيـدِ[١]، أَنَّنَا وَنَحْنُ أُسُودُ الْحَرْبِ، لا نَعْرِفُ الْحَرْبَا؟
فَوَيْلَكَ؛ مَنْ لِلْحَرْبِ إِنْ لَمْ نَكُنْ لَهَا؟ وَمَنْ ذَا الَّذِى يُمْسِى وَيُضْحِى لَهَا تِرْبَا؟
لَقَـدْ جَمَعَتْنَا الْحَـرْبُ مِنْ قَبْـلُ هَذِهِ فَكُنَّـا بِهـا أُسْـداً؛ وَكُنْتَ بِهَـا كَلْبَا
فَسَـلْ "بَرْدَسَـا" عَنَّا أَبَـاكَ وَصِهْرَهُ وَسَلْ آلَ «بَرْدَالِيسَ» أَعْظَمَكُمْ خَطْبَا
وَسَلْ "قُرْقُواسًا" وَ"الشَّميشَقَ" صِهْرَهُ وَسَلْ سِـبْطَهُ «الْبِطْرِيقَ» أَثْبَتَكُم قَلْبَا
بِأَقْلَامِنَـا أُجْحِـرْتَ[٢] أَمْ بِسُـيُوفِنَا؟ وَأُسْـدَ الشَّرَى قُدْنَا إِلَيْكَ أَمِ الْكُتْبَا؟
(أبو فراس الحمدانى، ١٩٩٤م: ٣١)

فحشد أبو فراس فى هذه الأبيات سلسلة من أسماء الأماكن الرومية ومن أسماء قواد الروم، وبطارقتهم، وفرسـانهم الذين هزموهم، مسـتهلًّا قصيدته بهذه الصورة الساخرة للدمستق حين وصفه بأنّه "ضخم اللغاديد" و"كلب" مشيرًا إلى احتقاره ووضاعته.

وفى إحدى رومياته يصف لقاءه بالدمستق، فالدمستق يعيد النظر فيه مرة بعد أخرى كأنّه لا يعترف بالأمير الفارس وينكر وجوده، فيخاطبه أبو فراس مدافعًا عن الحمدانيين وعن محاربتهم الروم قائلًا:

تَأَمَّلَنِى «الدُّمُسْتُقُ»، إِذْ رَآنِى، فَأَبْصَرَ صِيغَـةَ اللَّيْثِ، الهُمَامِ
أَ تُنْكِرُنِى؟ كَأَنَّكَ لَسْتَ تَدْرِى بِـأَنِّى ذَلِـكَ الْبَطَـلُ المُحَامِى
أَمَا مِنْ أَعْجَبِ الأَشيَاءِ عِلْجٌ[٣] يُعَرِّفُنِى الحَلَالَ مِـنَ الحَرَامِ؟
وَتَكْنُفُـهُ بَطَارِقَـةٌ تُيُوسٌ[٤]، تُبَـارِى بِالْعَثَانِـينِ[٥] الضِّخَامِ
لَهُمْ خِلَقُ الحَمِيرِ فَلَسْتَ تَلْقَى فَتًى مِنْهُم يَسِـيرُ بِـلَا حِزَامِ
(المصدر نفسه: ٣١٨)

فهو فى هذه الأبيات يرسـم صورة مزرية لـ"لعلج" ويريد به "الدمسـتق" لأنّه أراد فى تأمّلـه أبا فـراس أن يعرّفه الحلال من الحرام ثمّ يهجم على "البطارقة" ويسـتهزئ بهم

١. اللُّغْدُود: اللّحمة بين الحنك وصفحة العنق (ج) اللغاديد. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٨٣٠)
٢. أجحر القوم: دخلوا فى القحط، وأجحر الضبَّ ونحوه: أدخله الجُحْر. (المصدر نفسه: ١٠٨)
٣. العِلْج: كلّ جاف شديد من الرجال، والحمار. (المصدر نفسه: ٦٢١)
٤. التَّيْس: الذّكر من المَعْز والظّباء والوعول إذا أتى عليه حولٌ. (مصطفى وآخرون، ١٩٧٢م: ٩١)
٥. العُثْنون: شعيرات طوال عند مذبح البعير والتَّيْس (ج) العَثانينَ. (المصدر نفسه: ٥٨٤)

ويشـــبههم بالتيوس ويشبه فطرتهم بفطرة الحمير ويصف من كانوا فى مجلس المناظرة من الروم باللئام وهكذا يقف أبو فراس منهم موقف السخرية والتهكم.

بلغه أنّ الرّوم قالوا: كلّ من نأســره من المسلمين نسلبه ثيابه وسلاحه إلا أبا فراس، فقال فى إحدى قصائده التى يبدأها بذكر إبائه وعذابه المكتوم، ووصف حبيبته وحواره معها ثمّ تفاخره وتبريره للأسر، مفتخرا:

يُمُنُّــونَ أَنْ خَلَّــوا ثِيَــابِى؛ وَإِنَّمَــا   عَلَــىَّ ثِيَــابٌ، مِنْ دِمَائِهِــمُ، حُمْرُ
وَقَائِمُ سَــيْفِى، فِيهِمُ، انْدَقَّ نَصْلُهُ   وَأَعْقَابُ[١] رُمْحِى، فِيهِمُ، حُطِّمَ الصَّدْرُ

(المصدر نفسه: ١٦٥)

ملامح الائتلاف والاختلاف بين الشاعرين

إنّ أبا تمام عاصر الخلافة العباســية فى عصرها الذهبى واستطاع أن يصور فى شعره هزيمة الروم أمام العباســيين تصويرا رائعا، ووصف معارك الثغور وحصار القسطنطينية وخليج البســفور، وافتنّ فى تصوير الحالة النفســية للروم وما أصابهم من خوف وفزع، وســخر من (منويل) قائد الروم المنهزم، وخاطبه خطابا ينطوى على الســخرية؛ وشبّه تيوفيل إمبراطور بيزنطة بالكلب الذى يحرّك ذنبه مداراة للقائد العباسى.

أبوتمام جاء بأسماء الأمكنة الرومية فى شعره، مثل «درولية»، و»فروق»، و»صاغرى»، و"أوقضى»، و»ميمذ»، وغيرها، وذكر أسماء خاصة من أسامى الحصون من مثل «الحمّة البيضاء»، و»القفل»، و»أكشوثاء»، وغيرها.

وتُطــلّ علينــا ثقافته الدينية فى ثنايــا بعض قصائده التى نظمهــا فى وصف حروب العباسيين مع الروم، فالحرب فى رأيه هى بين الدين والكفر وليست بين المسلمين والروم.

ويبــدأ الشــاعر كل هذه القصائد بمقدمة غزلية، غير قصيدتــه التى مدح بها المعتصم واصفا معركة عمورية لأنّه كان خليفة حرب وقتال.

أما أبو فراس الحمدانى، فكانت له تجربة خاصة مع الروم، لأنه وقع فى الأسر وسيق إلــى بلادهم، واتصل بهم عن قرب وأبان فى رومياته كراهية شــديدة للروم ورســم لهم صورا مُزرية، ووصفهم بالكفر، والشرك.

---

١. العَقِبُ: آخر كلّ شىء، والمراد فى البيت مؤخر الرمح (ج) أعقاب. (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٨٢٩/٤).

وصوّر الشاعر المناظرات التى جرت بينه وبين الدمستق ملك الروم، ورسم الشاعر صورا مزرية للبطارقة وسخر من الدمستق فوصفه بأنه "ضخم اللغاديد" فالشاعر نظر إليهم نظرة إزدراء وشبّه الدمستق بالعلج والكلب وشبّه البطارقة بالتيوس واستحضر كثيرا من أسماء قواد الروم والبطارقة.

النتيجة

من خلال هذه الدراسة نرى أنّ كلًّا من الشاعرين يرسم لقواد الروم صورا مزرية، أمّا أبوفراس فيعنّفهم أكثر فأكثر، ويسميهم بالكلب والعلج، ويصف الدمستق بضخم اللغاديد ويقرن خلقتهم بخلقة الحمير، وقصائد الشاعرين مليئة بأسماء الأمكنة والأشخاص فلها قيمة تاريخية وجغرافية إضافة إلى قيمتها الأدبية.

إنّ الشاعرين يعتقدان بأنّ هذه الحروب ليست بين العرب والروم بل بين التوحيد والشرك.

أمّا المعانى الحماسية فإنّهما للتعبير عنها يستعينان بالتصاوير الدقيقة وبالتشابيه القريبة، كما أنّ المعانى الدينيّة تطلّ علينا من بين قصائدهما الحربية.

وأمّا أبوتمام فيستهلّ هذه القصائد بالمقدّمة الغزلية أو بالمقدمة الطّللية باستثناء القصائد التى نظمها فى مدح الخليفة المعتصم وقائده الأفشين، لحرص الشاعر على التجديد ولكون المعتصم خليفة حرب وقتال، ولكن أبافراس يباشر الموضوع ولا يتطرق إلى المقدمات الغزلية أو الطللية فى أكثر قصائده.

ومن خلال دراسة هذه القصائد الحربية فى مدح القوّاد خلصنا إلى أنّ فنّ أبى تمام فى شعر الحرب يظهر فى الألفاظ والمعانى، أمّا الألفاظ فالشاعر حريص على الموسيقى اللفظية والإيقاع بالحروف، مما جعله يستعين بـ"التناظر اللفظى" (المحاسنى، ١٩٦١م: ٢٢٥)، الذى نراه فى كثير من الألفاظ التى سُمّيت بها البلاد من مثل: أورثت صاغرى صغارا، وقضت أوْقضى، وغيرهما من الألفاظ.

ويؤلّفان كلاهما بين أجزاء القصيدة بالمحسنات اللفظية من مثل الجناس والتكرار، وبالمحسنات المعنوية من مثل الطباق وغيره، ولكن أباتمام له البراعة والحذاقة فى استخدامهما ويتأثّر الشاعران بالقرآن الكريم فى بعض معانيهما الحماسية.

وأمّا نزعتهما فى وصف الحروب فلأبى تمام نزعة ملحمية فيه ونرى فى قصائده لونًا

جديدًا من ألوان الفن وهو القصص، فالقارئ لا يزال يتبعها حتّى ينتهى منها دون تعب، مع طولها.

أمّا أبو فراس فلا يصف الحروب التى وقعت بين الحمدانيين والروم بشكل ملحمى وتفصيلى لأنّه يرى نفسه أميرا ويريد أن يكون ممدوحا ولا مادحا، وهذا الإحساس يمنعه أن يصف الحروب التى تقتضيه أن يذكر فيها بطولات غيره حتّى ولو كانت بطولات سيف الدولة، فصعب عليه وصف الحروب التى خاضها سيف الدولة إذ يقتضيه ذلك أن يجعل منه بطلا أسطوريا عظيما وينسى نفسه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن منظور. (١٩٨٨م). لسان العرب. نسق وعلق عليه ووضع فهارسه على يسيرى. بيروت: دار إحياء التراث العربى للطباعة والنشر والتوزيع.

أبوتمام، حبيب بن أوس. (١٩٨١م). ديوان أبى تمام. ضبط معانيه، وشروحه وأكملها إيليّا الحاوى. بيروت: دار الكتاب اللبنانى.

أبو فراس الحمدانى، حارث بن سعيد. (١٩٩٤م). ديوان أبى فراس الحمدانى. شرح: خليل الدويهى. ط٢. بيروت: دار الكتاب العربى.

البستانى، بطرس. (١٩٦٨م). أدباء العرب فى الأعصر العباسية. بيروت: دار المكشوف ودار الثقافة.

بكار، يوسف. (٢٠٠٠م). عصر أبى فراس الحمدانى. راجعه ماجد الحكواتى. الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى.

الحاوى، إيليّا. (١٩٨٦م). فى النقد والأدب (العصر العباسى). ط٢. بيروت: دار الكتاب اللبنانى.

الحموى، ياقوت بن عبد الله. (١٩٥٧م). معجم البلدان. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر.

الخطيب التبريزى. (١٩٩٤م). شرح ديوان أبى تمام. قدم له ووضع لهوامشه وفهارسه راجى الأسمر. ط٢. بيروت: دار الكتاب العربى.

الرازى، محمّد بن أبى بكر. (٢٠٠٦م). مختار الصّحاح. بيروت: المكتبة العصرية.

الشكعة، مصطفى. (١٩٨٦م). الشعر والشعراء فى العصر العباسى. ط٦. لبنان: دار العلم للملايين.

ضيف، شوقى. (١٤٢٧ق). تاريخ الأدب العربى. ط٢. القاهرة: ذوى القربى.

العنبكى، سعيد حسون. (٢٠٠٥م). «قصيدة فتح عمّورية لأبى تمام قراءة أخرى فى بنائها الفنى».

مجلّة المورد. المجلد الثانى والثلاثون. العدد ٤. صص ١٦٠-١٥٢.

عيســى، فــوزى. (٢٠١٠م). صورة الآخر فى الشــعر العربى. لامک: دار المعرفــة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع.

الفاخورى، حنا. (١٩٨٦م). الجامع فى تاريخ الأدب العربى. ط١. بيروت: دار الجيل.

مصطفى، إبراهيم وآخرون. (١٩٧٢م). المعجم الوسيط. ط٢. مصر: دار المعارف.

المحاســنى، زكى. (١٩٦١م). شــعر الحرب (فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة). القاهرة: دار المعارف.